

مهاتما غاندي

تلخيص تاريخه كما رواه نفسه

- ٣ -

باكره الشباب

كنت في المدرسة منذ السادسة او السابعة الى السادسة عشرة من عمري ، حيث تعلمت كثيراً من الاشياء ، ما عدا الدين . ولقد اخفقت في أن اتلقى من اساتذتي ما يمكن ان يعدوني به من معلومات ، من غير ان اكدهم واجهدهم . ومع هذا استطعت ان التقط مبادئ ديدية استعملتها من بيتي تسقطاً من هنا وهناك . واعني «بالدين» ، اصطلاحاً في اوسع ما يحتمل من المعاني ، انه عبارة عن «تحقيق الذات»

ولدت في ضلال معتقد «فايشنافا» Vaishnava — ولذلك كثيراً ما كنت اغشى مفيد الامرة . ولكن العبادة في المعابد لم تكن لتلائم مزاجي . فاني اكره فيها مظاهرها ونفاسها المصطنعة ، وكذلك سمعت ان كثيراً ما يقع في المعابد من الاعمال ما لا يتفق والآداب ، فزهنت فيها زهداً تاماً

ولكن ما فاتني من العلم زهدي في المعابد تلقينته من مربيتي ، وهي خادمة صبور من الامرة ، لا زال اذكر عطفها وحنوها علي الى الآن . اقترحت علي يوماً ان اكرر اسم «راما»^(١) كعلاج انخلص به من خوفي من الاشباح . ولكن كان لي من الثقة بها ، اكثر مما كان لي بحقيقة العلاج الذي وصفته ، غير ان سني سمحت لعقلي ان يتأثر بما وضعت من علاج اذ ينهب مما احس من خوف . والبزرة الصالحة اذا غرست في سني الشباب فلا بد من ان تترك ارضاها الثابت في النفس . واتخيل ان ما غرست هذه المرأة الصالحة في نفسي من الاتجاه ال ذكر «راما» لا طرد الخوف ، قد ثبت في نفسي ، حتى اني كثيراً ما الجأ الى الاسم اكرره في ايام محني ، فيروح عني ، ويخرج ما ينقل على صدري من الهموم

(١) «رامانا Ramanama» كلمة تكرر تمبداً وتقرأ الى الله . «راما» عبارة عن تجميد الذات البصرية وحلها فيها كما وصف في تصنيفه «رامانا» الايقاعية التي وضعها ترولايدس Tulasidas وهذه التصنيف في الهندية معتبة من الامم الهندية التي وضعه «فالمكي» Valmiki

في ذلك الوقت حاول احد اصحابي ، وكان من اتباع « الرامايانا » — Ramayana — ان يقتني وأخي الثاني مبادئ « رامارا كشا » — Rama Raksha — فأخذنا نصم المبادئ صمماً ، واتخذنا تلاوتها عن ظهر قلب عادة عكفنا عليها كل صباح بعد الاستحمام . وظلنا نتلو ما حفظناه طيلة ما تقينا في « يوربندار » ولكننا لسنا كل شيء بمجرد ان حللنا في « راجكوت » ذلك لانني لم اكن اعتقد بهذه المبادئ ، وكنت اتلوها لازهو فقط بأني استطعت ان اتلو « رامارا كشا » من غير خطاه في تخرج الحروف والكلمات . واما الذي ترك اراء في نفسي لا يزول ، فقراءة « الرامانا » تأليف « تولاسيداس » مع ابي . وكان ابي خلال مرض وفاته قد اضي بعض الزمن في « يوربندار » ، وتعود ان يسمع تلاوة « الرامانا » كل ليلة وكان الذي يتلوها « لاوا مبراج » من اخص اتباع « رامارا » وأكثرهم تأراً به . وكان يقول بأنه استطاع ان يشفي نفسه من مرض الجذام بغير عقاقير ، بل بأنه لف على الاعضاء المنصابة اوراق شجرة مقدسة في معبد « بولشغار » وهبت للآله الكبير ، وبأن اخذ يكرر اسم « رامارا » . وقد يكون هذا صحيحاً او غير صحيح . غير اننا صدقنا صحة الرواية على كل حال ، لان جسم الرجل كان في ذلك الوقت سليماً من الجذام . وكان ذا صوت شجي ونبرات حزينة ، وكان يرتل ثنائيات اورباقيات ، مسترفقاً كل استرفاق ، حتى انه يحرف معه كل سامعيه . وكنت في الثالثة عشرة من عمري اذ ذلك . ولكنني اذكر ان تراتيله اختلتنى وأوقعتني في شراكه . وكان هذا سبباً في افتتاحي « بارامانا » . واني لا اعتقد الآن هذا الكتاب اعظم كتاب تعبدية ظهر في العالم

لعلت في « راجكوت » كيف اكون متسامحاً ازاء كل فروع المذهب الهندوكي والديانات الاخرى . وكنت مع ابي وامي كثيراً ما يزور معابد شيفا وراما ، وكثيراً ما كان يزورنا رجال من مختلف المذاهب ويتناولون بالكلام مختلف المسائل الدينية . وكان يزورنا مسلمون يحدثوننا عن حقيقة متقدم . وكنت اسمع هذه الاحاديث وما يدور حولها من المناقشات بجانب سرير ابي وانا امرضه . وكان هذا سبباً في ان لا اشعر بأثر التعصب للمذهب او ضد مذهب ما

شدت النصرانية وحدها عن هذه القاعدة عندي . فقد تكون في عقلي نوع من الكراهية لها . ولذلك سبب ، فقد اعتاد مبشرو هذه الديانة ان يقفوا على مقربة من المدرسة العليا وهناك يمطرون الهندوكيين سباً ولعناً ويوسعون آهتهم تحقيراً . ولم اكن استطع ان اهضم هذا . وقت مرة استمع اليهم . وكانت الاولى والاخيرة فلم احاول ان اعيد التجربة مرة اخرى . وسمعت في ذلك الحين عن هندوكي معروف انتحل الديانة المسيحية . وكان حديث المدينة كلها يدور حول تعميده وكيف انه اكل لحم العجل وشرب النبيذ ، وانه ابدل زيه

فبدأ يابس اللابس الاوربية ولفظي رأسه بقبعة . ولقد ار كل هذا في اعصابي ايما تأثير . حتى لقد حدثتني نفسي بأن ديناً رغم معتقته على اكل اللحم وتماضي المشروبات الروحية وتغيير زيهم ، ليس جديراً بأن يكون ديناً ، وليس خليقاً بأن يسمى ديناً . وطرق سمعي ان ذلك المؤمن الجديد أخذ يهزأ بدين اسلافه وعاداتهم ووطنهم وكانت كل هذه الاشياء سبباً في اني شعرت بكرامية نحو النصرانية

على الرغم من اني رضت نفسي على ان اكون متابعاً نحو الاديان الاخرى ، فان ذلك لم يكن معناه اني كنت اعتقد في وجود الله . وحدث اني قرأت في ذلك الحين كتاباً دينياً^(١) كان بين متعدياتي اني ، ولم تترك قراءتي لما تضمن من افاصيص الخلق وأصل الانسان اني اني نفسي ، بل على العكس من ذلك احدثت في نفسي زعة الى الالحاد وانكار وجود الله . وكان لي ابن عم احترم فيه الكفاءة العقلية وقوة الحكم . فلجأت اليه اثير شكوكي واستعين به عليها ، فلم يستطع ان يذلل معاصي او يحل مشكلة من مشاكلي العقلية . واخيراً تركني قائلاً « عند ما تكبر يمكنك ان تحل هذه المشكلات بنفسك وهذه مسائل لا يجب ان تكون من مشاغل من هم في مثل عمرك » فكت ولكن لم يهدأ بلي

على اية حال لم يستطع هذا الكتاب بشرائه واقاصيصه ان يعطيني « الاها »^(٢) Ahimsa ولكن شيئاً واحداً ثبتت اصوله في نفسي اذ ذلك . هو الاعتقاد بأن الاحاس الاديني اساس كل الاشياء ، وان الحق هو المادة الاولية التي تتكون منها شرعة الآداب العليا . ولقد اصبح الحق ظاهري الوحيدة في الحياة . فأخذ يعظم في نفسي ويزيد قدره في يقيني يوماً بعد يوم . ومنذ ذلك الوقت اخذ ادراك لي لمعنى الحق يعظم وترامى اطرافه شفقت بعد ذلك بقطعة شعرية باللغة الجرجانية ملكت مني عقلي وكل قلبي . وكان عنوانها « قابل الاساءة بالاحسان » فأصبح مبدئي الاول الذي يقود خطواتي ، بل امسى شهرة محمودة جامعة ، حتى اني اخذت اطبقها في الحياة العملية

بعد ان اجتزت امتحان القبول ، أشار علي من هم اكبر مني سنّاً ان اتابع درسي في الكلية . وكان امامي جامعتان احدهما في « باقنجان » والاخرى في بومباي . وكانت اولاهما اقل ثقافة فاخترتها ، على ان التحق بكلية « سانسنداس » . فذهبت ، ولكن لم البث ان وجدت نفسي في بحر لحيي . كل شيء كان صعباً . وكل شيء كان صيقاً . ولم استطع ان استوعب

(١) انما نوسمري — Manusmriti — شريرة هندوكية قديمة جداً تعدد نظام الطائفة الهندية بهذا الاسم . وانكتاب يحتوي على احاديث في اصل الحق واصل الانسان
(٢) راجع ما علقته به على هذه الكلمة في المقال الثاني الذي نشر في مختلف أبريل الماضي

محاضرات الامانة . ولم يكن ذلك براحة اليهم . فان اساتذة هذه الكلية كانوا يمتدرون من الطراز الاول . ولكنني كنت جفا غير ناضج . وفي نهاية الدورة الدراسية الاولى عدت الى البيت .

وكان «ماقجي واڻي» وهو برهمي اريب واسع الاطلاع ، مرجع الاسرة ومحل استرشادها . فزارنا خلال الاجازة المدرسية ، وسأل ابي راخي الاكبر عن دراستي وكيف اسير فيها ، فلما علم ابي من كلية « ساملداس » اقترح ان اسافر الى انجلترا لانتخرج في القانون . وكانت هذه امنيتي قائم الاقتراح قلبي سروراً لأمرن . الاول ابي كنت الاقي صعوبات حمة في الكلية ، والثاني ابي اردت ان ارى بلاداً جديدة . غير ابي اردت ان التحق بكلية ادرس فيها الطب فاعترض اخي قائلاً ان ابي كان يفض هذه المهنة ، وكان يقصدك بقوله ان « الثاينثا » لا شأن لهم بتسريح الجثث ، بل اراد ان تكون معامياً . وكان الاعتراض الثاني على درس الطب ان هذه المهنة لا تهينني لان اكون « ديواناً » كما كان ابي . واني اذا اصبحت « ديواناً » او أكثر من ديوان استطعت ان اقوم باعباء اسرتي

وما تم هذا الحديث وانصرف البرهمي ، حتى اخذت ابي العلال والقصور ، ولكنني في الهراء . وبدأ اخي يفكر الى اين يرسلني ، وهل من الحضافة ان يرسل بشاب مثلي وحيداً في بلاد اجبية ؟ اما ابي فقد اضطرب فكراها واختلط عليها الامر ، لانها كانت تخمت فكرة ابي مفارقتها وبتعد عنها . وحاولت ان تقيم العقبات في سبيل سفري فقالت « ان عمك أسن من في الاسرة الآن ، فيجب اولاً ان نشاوره في الامر ، فاذا وافق امكنا ان نظرفي الامر » فلما قابلت عمي واطلته على جلية الامر فكفر قليلاً ثم قال ولست ادري ان كان هذا العمل يتفق ومبادئ ديننا . وكل ما يصل اليه علي في هذا الموضوع لا يخلو من شكوك فاني عندما اتقابل كبار المحامين لا ارى فارقاً بين حياتهم وحياة الاوربيين . أهم لا يتقيدون بقيد فيما يأكلون . ولقائف التبغ لا تتارق شفاههم . ويلبسون بلا خجل كما يلبس الانجليز . وكل هذا مناقض لتقاليد اسرتنا . واني لمزمع حجماً ، ولم يبق لي في الحياة الا سنوات معدودات وكيف تنصور وانا على حافة القبر ان اذن لك ان تذهب الى انجلترا وان تقطم بيننا وبينك البحار ولكنني لن اقف في طريقك فالامر اذن يرجع الى موافقة امك . فاذا وافقت فارع بالسفر قل لها ابي لن اتسخر في الامر . اما اذا سافرت فاني اباركك »

فلما رجعت الى « راجكوت » وقلت الى ابي ما قال لي ، ترددت وقررت . فقد قيل لها ان الذين يذهبون الى انجلترا يبيعون الفضائل بالذائق . وقيل لها أنهم يأكلون اللحم

وأنهم لا يشعلون ان يعيشوا من غير ان يتعاطوا المشروبات الروحية. وسألتني كيف انصرف
ازاء هذا؟ فقلت لها «يا امي العزيزة. ألا تتقين بي. فأني لن أكذبك شيئاً. واني لأقسم
لك بأني لن اقرب شيئاً من هذه الاشياء» فتالت: استطع ان اتق بك واعتمد عليك.
ولكن كيف تكون هذه الثقة وانت في بلاد نازحة وديار بارحة. أفي مرتبة ولست ادري ماذا
افعل؟ سوف أسأل «سوامي» Swami

وكان «سوامي» بالمولد والنم في طائفة «البانيا» كالغانديين. ولكنه اقلب كاهناً من
طائفة «الجانين» Jains. وكان من مستشاري الاسرة كالمبرهي الذي مر ذكره. فمدي بمساعدته
وقال سأخذ عليه العهود الثلاثة واقبده بالمواثيق وبعدها استطع ان يذهب حيث شاء.
فاقسمت ونهدت بان اعيش في انجلترا عيش الفردي الصرفة وان لا امس الخمر او اللحم.
فلما انتهت من تسي،،، باركتني امي وسمحت لي بمغادرة بلادي

وسارت الي «بومباي» تاركاً زوجي ومعها طفل لا يتجاوز عمره بضعة اشهر. ولكنني
لم اصل الي هذا الشر حتى انتف بلخي الاصدقاء وقالوا له ان لطيف الهندي يكون نائراً خلال
شهرَي يونيه ويوليه. ولما كانت هذه سفري الاولى؛ وجب ان ارجى سفري الي نوفمبر. وقال
آخر ان باخرة غرقت خلال طسفة. وكان هذا سبباً في ان يتامل اخي؛ ورفض ان يتحمل
مسؤولية السماح بي بالسفر توما. فتركتني في «بومباي» مع صديق وطأ هو الي «راجكوت»
ليؤدي اعماله، وترك تفقات السفر مع احد اقاربه، واوصى بي الاصدقاء ان يقدموا الي ما
احتاج اليه من المساعدات ومرت بي الايام والساعات طويلة متناقلة في «بومباي» لاني
كنت احلم بالانجلترا وما فيها



واخذ رجال طائفتي الدينية يدون اعتراضاتهم على سفري الي الخارج؛ بل بلغ بهم الامر
الي اخبار مقبهم وغضبهم. فانه حتى ساعة عزمي على السفر لم يعادرو احد من طائفتنا شواطي
الهند؛ فاذا اقدمت على السفر وصممت عليه؛ وجب ان يحتكوا معي الي الكتاب. فقعدت
جمهرة من رجال الطائفة ودعوني الي الظهور امامها لاجيب عما يوجه الي من اسئلة. ولست
ادري كيف استجعت قدراً كافياً من الشجاعة حلني على الذهاب الي جمهورتهم. على اية حال
لم أتوان عن الذهاب اليهم؛ فاخذ رئيس الطائفة؛ وكان من اقاربي البعيدين؛ ولكنه كان على
سقاء مع ابني؛ يلني هذه الكلمات:

«من رأي الطائفة ان عزمك على السفر الي انجلترا امر لا يتفق وعقائدها. ثم ان ديننا
يمنعنا عن السفر الي خارج بلادنا باي حال من الاحوال. وكذلك وصل الي مسامحة انه من

المستحيل ان يعيش الانسان هناك من غير ان يحل ما حرم ديننا فان المرء يضطر اضطراراً ان يأكل ويشرب على طريقة الاوربيين . فكان جوابي — « لا اخن مطلقاً ان الذهاب الى انجلترا يكون فيه اي تناقض مع مبادئ ديننا . وخرصي من الذهاب الى هناك ان اكل دراستي . هذا فضلاً عن اني وعدت امس ان ابتعد عن ثلاثة اشياء هي اخوف ما تخافون . واني لعلي يقين من ان قسي سوف يحفظني من السقوط »

قال الرئيس « ولكن تؤكد لك انك سوف لا يمكنك ان تقوم بفروض الدين هناك . وانت تعلم علاقتي بابيك وغيرتي عليك . ولذا ارجب في ان تسمع نصحي وترضخ لارشادي » فكان جوابي — « اني لاعرف علاقتك بأبي ، ولكن لا حيلة لي في الامر . لاني لا استطيع ان ارجع عن عزيمي على الذهاب لانجلترا . فان احد اصدقاء ابي ذوي العلم والمعرفة ، وهو برهمي ذو وزن وقيمة ، لا يرى مانعاً يحول دون ذهابي ، وعلى رأيه وافق أخي ووافقتمني »
« ولكنك ستخالف نظام الطائفة »

« لا حيلة لي ولا مخرج . وان الطائفة سوف لا تتدخل في هذا الشأن . ولقد اسكتت هذه الكلمات الرئيس ، فاخذ يحدجني بنظراته وانا جالس لا اتحرك ، ثم اعن ما يأتي :
« سوف يعامل هذا الغلام على انه خارج على الطائفة مطرود من حظيرتها منذ اليوم . وكل من يذهب ليوذعه على الميلاء سوف يعاقب بغرامة مقدارها روبية وأربعة اناث »
فلم يؤثر في هذا الامر اقل تأثير وتوكت الرئيس توا . ولكن اشفقت من ان يكون للامر أثر في نفس أخي . ومن حسن حظي ان الامر لم يهزه ولم يغير رأيه ، بل كتب يؤكد لي انه يأذن لي في السفر على الرغم من معارضة رئيس الطائفة واعضائها في « بمباي »



وبينما كنت في هذه اللجة المضطربة سمعت ان محامياً من المعروفين سيافر الى انجلترا على سفينة ستغادر الميلاء في اليوم الرابع من شهر سبتمبر . فبادرت الى الاصدقاء الذين اوصاهم بي أخي ، فوافقوا على ان اتمه فرصة السفر مع هذا النحامي ولم يكن لدي من الوقت ما اسبح بضياعه . فأبرقت الى أخي استأذن فاذن . وسألت قريبي ان يعطيني المال الذي تركه أخي معي . ولكنه استمسك بالامر الذي أصدره رئيس الطائفة وقال انه لا يريد ان يطرده كما مردت . وبعد لأي استطعت ان اسوي الامر بعد الالتجاء الى صديق لولاه لما استطعت ان آخذ مالي واحصل على تقعات سفري . ووصلت الى سوثبترون حوالي آخر شهر سبتمبر ١٨٨٨